جولة فى « ما بعد الحرب »

السفر ـ لوندرة ـ باريس

[سافر فى الأسفار خمس فوائد]
من بيت شعر ضعيف

مطار ألماظة — أو ألماسة ، وقيل أدماسة ، كما يريد ولا شك أصحاب المذياع والشاطر والمشطور بينهما لا أدرى ما ذا — يتوهج تحت لمسة الشمس المائلة إلى الغروب ، ذات يوم من أيام يوليه . وكأنى عائد إلى الإسكندرية بالطيارة كما اعتدت منذ أنشئت الشركة المصرية . ولكنى فى هذه المرة أحمل جواز سفر وأقف فى دورى لتفحص أوراقى وحقائبى . فرحلتى تنتهى إلى أبعد من الإسكندرية ومن حدود مصر وغيرها . اليوم أسافر إلى لوندرة ، إلى عالم « ما بعد الحرب » لأول مرة .

الطائرة « داكوتا » ذات العشرين مقعداً أو نحو ذلك ، واتجاهها إلى الغرب فوق الصحراء ، وهذا أيضاً ليس جديداً علىّ ؛ فقد ركبت سنة ١٩٣٢ طائرة « ڤيكرز ڤيكنج » الحربية التى تحمل عشرين جنديًّا ، وطرت بها فى اتجاه الغرب حتى المُغَرَة ، وفوق منخفض القطارة إلى واحة سيوة .

والطيران بعيد المدى عبر حدود الدول عرفته بعض الشئ حين سافرت من أثينا الى بوخارست ، ومن روما إلى أثينا ، ومن القاهرة إلى بيروت .

وأنا بعيد العهد بالطيران . أول ما حلقت فى الجو كان عام عبور لندبرج للمحيط الأطلانطى — لندبرج خمر أميريكا الذى استحال خلاً بجرثومة النازية — سنة ١٩٢٧ إذا كنت أذكر جيداً . ركبت حينذاك طائرة ذات مقعدين مكشوفين ، فى حفلة « التعميد الجوى » كما تسمى . طائرة كانت إلى طائرات اليوم عربة كارو هوائية ، ألبست قبل الصعود إليها « لاسة » من

الجلد ، وحلقت عشرين دقيقة أشاهد المدينة الفرنسية التى كنت أسكنها ذاك العام .

ثم سافرت بعد ذلك من باريس إلى لوندرة ، فى أول زيارة لانجلترا بالطائرة .

ومع هذا لم يخل سفرى إلى إنجلترا فى صيف ١٩٤٦ من الجدّة ، لطول المسافة ، ومدة الطيران ، والطيران فى جنح الظلام ؛ وأهم من ذلك ، لأنه أول سفر لى بعد الحرب إلى بلاد « ما بعد الحرب » إلى أوربا ، مثلنا الأعلى فى كل ما نريده لبلادنا من خير ورفعة ، أوربا التى دافعتُ وأدافع عن حضارتها رغم تلك الحركات الرجعية التى تريدنا أن ننظر إلى الشمس فى مطالعها ، والموكب يسير غربا ، أن نولى شطر القرون الوسطى ، والتاريخ ينهب حقبته العشرين . أول سفر إلى أوربا المريضة التى انتهى بها المرض إلى نوبة جنون قاتل دام ستة أعوام .

القاهرة — العضم — مالطة — مارسيليا — لوندرة . بدأت الرحلة من ألماظة الساعة السادسة مساء ، وختمتها بمطار هيث رو الساعة الأولى بعد ظهر اليوم التالى : عشرين ساعة بحساب فرق الوقت ، جلها طيران ، إلا ساعة انتظار فى مطارات العضم ومالطة ومارسيليا . كل ما أذكره من تلك الرحلة : هزيم الآلات المستدير ، ومنظر الصحراء يتقلب من الذهبى إلى البنفسجى والرومادى فالأسود الحالك . والمصباحان الأخضر والأحمر إلى طرفى جناح الطائرة ، وشرارات تنبعث من جسم الطائرة الضخمة ، وأضواء تنتشر فى المطارات وسط الليل البهيم ، منها الثابت ومنها المتحرك كفنارات الموانى . وأكلات إنجليزية ازدردتها فى شبه غفوة النائم ، يقدمها جنود سلاح الطيران البريطانى فى جنح الليل أو قرب مطلع الفجر ، وصخور مالطة ، وزرقة البحر الأبيض ، وجزائره الساحرة ، والإفطار الفرنسى الخفيف تقدمه مرسيليات حسناوات ، وفرنسا بطولها فى اتجاه وادى الرون . والمانش بسحبه الكثيفة ، والريف البريطانى الجميل بمنازله ذات الطراز الموحد الممل .

لم أتعرف فى فرنسا على غير نهر الرون ، عند ذلك الكوبرى العتيق المهدم الذى عرفته فى أڤنيون باسم قنطرة سان بنازيه . وكان دليلى إليه الكوبرى المعلق القائم إلى جواره يصل بين ڤيلنوف واڤنيون .

بدأ « ما بعد الحرب » . لعينى عند هيث رو المطار البريطانى الكبير ، المزنحم بالطائرات من كل صوب وحجم وشكل . خلو من المبانى ، تقوم إدارته فى خيام عسكرية كالحة اللون . يتلقاك رجال البوليس والجمارك بالنظرات المعهودة فى كل زمان ومكان ، نظرات عابسة حازمة ، كلها تشكك فى أمانتك . وتجهم لقدومك ، فأنت فم ومعدة وشهية تضاف إلى الملايين من أشباهها فى بلاد لا تفى بحاجة سكانها . ثم إنك لا بد تحمل فى طيات ثيابك الذهب والجواهر والنشرات والقنابل . فإذا عرف الموظفون بهويتك ، وبما فى حقائبك من هدايا غذائية لأصحابك فى انجلترا ، ابتسموا فيما يشبه الاعتذار ، وتمنوا لك سفرا طيبا .

ثم أختراق تلك الضواحى الهائلة حول لوندرة التى تجعل من المستحيل عليك تحديد نهاية الأرباض وبدء المدينة . ساعة طويلة فى أتوبوس شركة الطيران ، أخترق أثناءها ذلك المزيج بين الريف والحضر ، الذى يميز الانجليزى . فهو إذ يبتعد عن المدينة لوندرة ، لا يعرف على وجه التحقيق أهو يعيش فى الحضر والريف عند أقدامه ، أو يسكن الريف والحضر فى متناول يده .

وأخيرا هذه هى لوندرة ، بحدائقها السندسية البهجة ، وأبنيتها السوداء القبيحة ، وازدحامها المرهق ، وأتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر ، الشامخة بطابقيها ، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار الطريق بدل يمينه ، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية .

كلا ! لم انس لوندرة منذ سنة ١٩٣٨ . فلم يمض علىّ فيها يومان حتى وجدتنى أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل . ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد ، وشعور « عدم المبالاة بالآخرين » ، والحدود الموضوعة للسلوك فى البيع والشراء ، والاتصال بالناس .

هم هم الانجليز بوجوههم التى لا تنم عن شعور ، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى . ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن ، وربما كن أشد صلفاً واعتدادا إذا كان رجالهم بدوا أشد تعباً وإنهاكا . نبذوا القبعات السوداء المستديرة التى يسميها الفرنسيون « السنطاوى » والتى كانت مصدر عجبى عند ما زرت لوندرة لأول مرة سنة ١٩٢٧ فلم أكد أتصور شعباً

با كمله يقلب على رأسه هذه الآنية المضحكة التى عرفتها أول معرفتى لها على رأس شارلى شابلن ابن السبيل المهلهل الأنيق .

شعور واحد يتملكنى فى عشرة أيامى الأولى بلوندرة : شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى أنقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل . قلب الأمة الباسلة العنيد التى وقفت وحدها فى مواجهة الأفاقين البرابرة الذى تحدوا البشرية جمعاء ، والتى تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمما ونارا ، ومن قاع البحر حمما ونارا .

كنت فخورا بإنسانيتى إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا واقيا للحضارة . وسواء عندى أن يكون دفاع الانجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته ، ما دام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعا .

أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا . غُلبوا على أمرهم ، وطردوا من أوربا والملايا ، وقُطعت عليهم أغلب طرقهم البحرية ، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات فى كل مكان ، وأُنذروا بالفناء قبل الغزو ، أو بالغزو فالفناء . ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق ، على حدود مصر والسودان ، وفى العراق وكريت ومالطة والهند . ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودوفر وجبل طارق ، وردوا الضربات بأقل منها ، فبمثلها ، فبأضعاف أضعافها . ثم جاء دورهم فى الغزو ، فنزلوا بالقارة الأوربية ، وحرروا فرنسا والبلجيك وهولاندة وإيطاليا ، ثم استعادوا بورما والملايا ، واكتسحوا قطعان الذئاب الفاشستية يردونها إلى عقر أوكارها ، حتى قضوا عليها ، وهم اليوم يتحكمون فى ديارها . إن قدّموا الخير فبشعور إنسانى كريم ، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم ، عادل أوغير عادل تبعا لمزاج من يريد أن يبدى حكما .

اشتركت فى الغلبة شعوب أخرى بدمائها وذهبها وصناعاتها ، ولكن أمر هؤلاء وأولئك ليس موضوعى ، ورحلتى فى « ما بعد الحرب » بدأت هنا فى بريطانيا . ومناظر التدمير الماثلة لعينى تخص عاصمة بريطانيا . والشعب حولى هو الشعب البريطانى ، بذل وأعطى ، دافع وهجم ، قاتل وضحى ، صبر وصابر ، حتى ظفر وانتصر .

كانت آثار التدمير فى لوندرة هى مزارى هذه المرة . وإذا كانت زيارة الآثار القديمة مبعث الشعور بالجمال الفنى ، ووحى التاريخ الغابر ، فالبيوت

المدمرة ، والكنائس المبقورة — تلك لكنيسة الأسكتلندية كتب الأسقف على جانب من حائطها المهدم : تجرى الصلوات بالجناح الأيسر — والميادين الجديدة فسحتها قنابل هرمان جورنج حول كاتدرائية سان پول ، هى أيضاً مبعث شعور خلق ، ووحى تاريخ قريب ، نطالع فيه عمى البربرية وتخرّص النازية التى نادت بالمدافع بدل الزبد ، لتفقد فى آخر أمرها المدافع والزبد ، ولا تجد فى نهاية الطريق سوى حبل المشنقة ورصاص البنادق وأنابيب سيانور البوتاسيوم ، والجوع والذلة وخصاصة العيش فيما أبقت عليه مدافع الروس وقنابل القلاع الطائرة .

قال لى صاحبى الانجليزى : لقد اعتدنا أن نرى المحايدين أقل إحساساً بما تركه التدمير من آثار فى بلادنا .

قلت له : ولكنى لست محايداً .

أجابنى : ولكنك لم تكن محاربا .

فطأطأت رأسى ، ولم أجرؤ أن أذكر له تاريخ دخول بلادى الحرب ، بل اكتفيت بترداد جملتى : ولكنى لم أك محايداً .

والإنجليزى رجل مهذب ، لا يحب الوصول بالحديث إلى غايته ، فسكت .

فى رويال ألبرت هول لحضور حفلات البرومناد كونسرت ، أحسست بروح شعب محب للموسيقى . والبريطانى كان فى كل عصوره سميعاً للموسيقى ، وإن لم يجد فى تاريخه ما يفاخر به شعوبا أكثر إنتاجا فى التأليف الموسيقى . ولم أنس هنا البحث فى أنحاء البناء المستدير الواسع ، أثر قنابل النازى .

وفى الناشونال جاليرى والتيت رأيت الشعب الحريص على تراثه الفنى يخرج توًّا من المخابئ ليؤكد القيم الباقية . وفى الجامعة والأكاديميات والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات عرفت للمرة المائة بعد المائة سر رقى الشعوب . فهو فى غير الزبد والمدفع ، إنما هو فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى .

هنا سر الدفاع الباسل عن حضارتنا . فكل إنسان ، حتى الهمجى ، مستعد للبذل فى سبيل الذود عن حومته . كل يدافع عما ملكت يمينه ويساره ، ولكن . . . فرق بين أن أدافع عن منازل أجدادى وآثارهم الفنية

والذهنية ، عن نوع من الحياة أساسه الكرامة الإنسانية ، وبين أن أدافع عن حياة دنيا ، ووطن استأثر به غنيه دون فقيره ، ورفض أبناؤه الشعور بتاريخه ومجده المؤثل . وحياة الانجليزى تنقلت بين الفقر والغنى والنجاح والخيبة ، والنبوغ والغباء ، والمغامرات شريفها وخسيسها ، ولكنها كانت حياة مجموعة بشرية لا تعرف الذل ، ولم تقبل الضيم يوماً فى تاريخها ، ولم تنكر حقبة من هذا التاريخ .

مسائل الدفاع هذه قد لاتدور بخلد الجندى البسيط بنفس الوضوح الذى تبدو فيه لعين المفكر المتعلم ، ولكنها حية فى نفسه ، كأنها قلبه النابض الذى لايفكر به وهو ينبض ، وليس مضطرًّا إلى التفكير فيه لكى ينبض . بمثل هذا يحيا الأمم وتنهض .

هذا الشعب المنتصر يعيش قريباً من الجوع ، يُقتَّر عليه فى الخبز واللحم ، ويحسب عليه الكساء وأدوات النظافة ، هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إيراده لترد عنه غوائل المعتدى ، يرى نفسه فى آخر المطاف غالباً يصرف بعض إيراده على المغلوب ، ويعيش ثلاثة أرباعه على إيراد الربع الباقى . فالدولة تأخذ من الغنى لتعطى الفقير . ومهما كثر ما تأخذ من الغنى ، فهى أبعد من أن تجعل من الغنى فقيراً ومن الفقير غنيا . ولكنها خطوات فى طريق التحرير ، تحرير البشرية من العوز ، طريق العدالة الاجتماعية ، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده ، بل أمام الاقتصاد أيضاً .

أعشى البصر من لايرى فى الشعب البريطانى اليوم أثر هذا الانقلاب الاقتصادى الخطير . قال لى أحد أثرياء الإنجليز ، ممن عاشوا طوال الحرب بعيداً عن إنجلترا : غير أنك تجد الشعب أقل تهذيباً وأدبا . ولكنى لم أر أثراً لهذه الملاحظة الرجعية الخاطئة . فقد رأيت فى الشعب البريطانى اليوم قوة اعتداد بنفسه اجتماعيًّا ، ورفضاً لخيالات الماضى ، وتمسكا بحقائق الاقتصاد والاجتماع . يرفض أن ينحنى للكبراء لأنه كسب الحرب بعرق جبينه ودموعه ودمه ، إذا كان الكبراء كسبوا الحرب بمالهم . وكم كسبت الحروب بدم الفقير ومال الكبير ، فخرج الكبير أكثر غنى وأسعد حالا ، وخرج الفقير أشد فقراً وأفقر دما . والشعب البريطانى اليوم يرفض هذا النوع من كسب الحرب . فلكلٍّ بقدر ماضحى ، ولكل بقدر ما بذل من جهد وعناء لا من مال ورخاء .

كان انتصار العمال وهزيمة الطغام الرجعيين موضع دهشة لنا فى مصر ؛ لأننا لم نكن نعرف من أمر تطور « مابعد الحرب » شيئا ، ولأن صورة العالم الخارجى لا تأتينا إلا عن طريق صحافة المال والأنانية ، وهى صورة أعدتنا لغير انتصار حزب العمال . ولكنى بعد زيارتى القصيرة جداً للوندرة عرفت أن هذا الانتصار كان طبيعيا ، منطقيا ، متوقعاً ، وأن العكس هو موضع الدهشة لو تم .

لم أر إنسانا يجمع الكل على احترامه اكثر من ونستون شرشل كزعيم حرب ، كرجل قاد أقدار أمته فى أحرج فترة من تاريخها وتاريخ البشرية . . . ليس غير . أما فى حكم البلاد بعد الحرب ، فهو آخر من يصلح ، بسبب ماضيه ومزاجه ورجعيته وحزبه الذى آذنت خاتمة حياته ولا يريد أن يموت .

وإذا قدر لحكومة العمال أن تفقد جزءاً من أغلبيتها فلن يكون ذلك لحساب المحافظين بحال ، ولكن لشعبة يسارية من حزب العمال غير راضية عن سياسة حكومة العمال فى بطئها وترددها ومواربتها ، وفى سياستها الخارجية التى لم تتغير إلا قليلا جداً عن سياسة المحافظين ، ولم تقم بعد بدورها الشخصى فى العالم كمركز التوازن بين الشيوعية الروسية والرأسمالية الأميريكية .

ومع هذا حققت حكومة العمال غير قليل من آمال الطبقة العاملة ، فى إخضاع كثير من المرافق للدولة ، وفى التأمين الاجتماعى بأنواعه ، وفى كسر شوكة أدعياء الحقوق التقليدية سواء كانوا من أصحاب رءوس الأموال أو من الهيئات ذات العزة والسلطان .

والصورة التى انطبعت فى رأسى لبريطانيا بعد إقامتى القصيرة فى لوندرة هى صورة شعب عامل مجد ، محب للنظام والعدالة ، يحترم حكومته لأنه اختارها ، ويتبرم بها تبرم الأخ بأخيه يوما أو بعض يوم . صورة شعب أمين فى معاملاته ، منطقى فى عمله دون أن يكون للمنطق حساب فى تفكيره ، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله فى العالم ، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التى تترجم بالعلم والفن والأدب ، والقيم الروحية فى السياسة التى تترجم بالنظر إلى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشريه .

وهذه فى رأيى مقومات الحضارة فى شعب كبير وأمة عظمى .

باريس

هل بلغك أمر الجميلة الأنيقة ، السرية ذات الدلال ، الذكية ذات الثقافة ؟ هل عرفت كيف كان منزلها ملتقى العظماء والمبرزين من رجال العلوم والفنون والآداب من أولادها وأصدقائها ؟ هل جاءك خبر الجميلة وقد استحال جمالها وفقدت أناقتها وضاعت ثروتها ، وتفرق أبناؤها يتلقون فُتات الغاصب ، وراح ضيوفها والأدعياء لصداقتها يحطون من قدرها ويطعنون فى أخلاقها وحسبها وذكائها وكفاية أبنائها ؟

أنا اليوم طائر من لوندرة إلى المنزل العتيد للقاء الجميلة بعد طول الفراق ، وجلٌ متعثر المشاعر والطائرة تقترب من البورچيه . أستمع لمضيفة الطائرة الفرنسية ، شقراء دقيقة المفاصل ، تحدثنا عن سرعة الطائرة فوق المانش — قاربنا الخمسمائة الكيلو مترا فى الساعة — وتسير إلى مواضع من أرض فرنسا ، فرحة بالعودة ، وقد غيرها جو بلادها فانطلقت تتكلم الفرنسية بلا انقطاع ، وكانت فوق انجلترا والمانش تنتقل بين لغتها والإنجليزية برشاقة وجاذبية لا حد لهما .

لحظة اللقاء ، لمست أقدامى أرض فرنسا بعد طول الغياب ، أمنا فرنسا كما يقول أهل لبنان ، ومربيتنا باريس . لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسى . تقطع يداى قبل أن يغدر بك ربيبك يا باريس !

أنا اليوم سائر إلى المنزل القديم ، دنسته أقدام الغاصب أربع سنوات . لا تبرح خيالى صورة الفيلد جراو يمشى فى أرض باريس مرحا ، مصعر الخد ، شامخ الأنف ، ينظر إلى أعلام منشورة فوق قوس النصر واللوكسمبور وقصر البوربون ، ويرقى الشانزليه فى دورية يومية تتقدمها الموسيقى إلى قبر الجندى المجهول .

لا تبرح خيالى جحافل النازى تدخل باريس ذات يوم من أيام يونية سنة ١٩٤٠ ، أمام منازل مهجورة ، ونوافذ مقفلة والجرّاح الكبير دى مارتل بفضل الانتحار على رؤية العلم الأحمر ذى الصليب الأسود يرفرف فى سماء باريس .

هل أنا فى طريقى إلى الحاضر أم أنا أسير القهقرى ؟ وماذا يهمنى الماضى إذا كذبه الحاضر ؟ ولكن ما قيمة الحاضر إذا كان يرفض كل صلة بالماضى ؟

ولم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا ، تصل حاضرها بماضيها دائماً ، صفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء . وما دامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت . إنما تموت الأمم إذ يموت تاريخها فى نفوس أبنائها . كلام معاد ، ودروس أولية ، وحقائق بالية ، تقمصت بعد زيارتى لباريس حياة جديدة حين وجدت فرنسا تضم إلى تاريخها ، وتقبلها ، تلك الصفحة المظلمة من الذلة والهوان ، التى عاشتها تحت أقدام النازى . عبرة ودرساً للأجيال الحاضرة والمقبلة لا من الفرنسيين وحدهم ، بل ومن غيرهم . ففرنسا لا تستطيع أن تحد دروسها بحدود جغرافية أو قومية . عرفت دائماً كيف تتحدث إلى كل الشعوب .

كل ما رأيت فى فرنسا لم أتوقعه ، والذنب فى هذا واقع على الصحافة العالمية التى تعيش بمال المنتصرين ، وبأغراض الطامعين فى تراث أم الحضارة وزينة الحضارة .

توقعت أن أرى فرنسا ترفض أمسها الذليل فى ظل الصليب المعقوف لتنسج لنفسها لبوساً من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة . فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ، ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار . لهم فى ذلك قولة مشهورة : سنوات الاحتلال النازى هى أيضاً من تاريخ فرنسا العريق . وفى هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والاندحار .

توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب ، فوجدتها مطأطئة الرأس ، مفكرة حزينة تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها . تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن نهج جديد فى حياتها .

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة ، قذرة تقتحمها العين . فرأيت شعباً جريحا يضمد جراحه ، أنيقا يرتق ثيابه ، نشيطاً إلى البناء ، متحفزاً للنهوض من كبوته . أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الدمن .

رأيت فى أيامى الأولى الصورة التى أعدتها لى الصحافة العالمية : مطاراً مهدما زرى الهيئة ، يحتفظ ببقايا اليونكرز والمسرشميت المدمرة ، وأتوبوساً عتيقاً يحملنى إلى باريس . يسير بأى شىء غير البنزين . وضواحى باريس وسكانها يشتملهم الفقر والأسى ومتاعب الحياة .

أيامى الأولى بقطارات المترو ، وفى الأوتوبوس ، وفى الحدائق العامة ، وفى

الشوارع ، أيام وجوم ويأس . لا شك أنى كنت أعيش فى مدينة الأشباح ، أشباح الماضى ، باهتة ساهمة ، بطيئة الحركة ، عاطلة السيماء . هل أكون فى مدينة بلقانية كانت تعجب بباريس فقلدتها ؟ أأكون فى بوخارست ، باريس الصغرى كما كان يسميها الأغرار من أبنائها ؟

السلام عليكم يا أهل القبور ! قبور بوخنڤالد وداخاو وأوشڤتز ، وأقبية الجستابو ، وأعماق سجون ڤرين ، وجدران الإعدام فى ڤانسين ومونڤاليريان !

باريس بدت لعينى أول ما بدت كسيرة النفس ، مجروحة العزة ، مقروحة الكبرياء . اختفت ابتسامة بناتها ذوات العيون الضاحكة والقدود الهيفاء ، وخفتت حركة أبنائها الطريرين لا يحملون هما .

لكل أسرة مفقود فى المعتقلات القريبة والبعيدة ، ذهب ولم يعد ، قضى بين شعاب الماكى وخلف أسلاك الأوفلاج والستالاج . كيف تعود إلى هذا الشعب المعذب ضحكاته ؟ ومتى ينسى همومه ، والحاضر محتفظ بقسوة الماضى المادية ، وإن انقشعت عنه الغمة الروحية ؟

هذه أيامى الأولى فى باريس ، شبح حزين بين الأشباح الحزينة !

ثم بدأت أتجسد وتتجسد الأشباح . أو هى الغشاوة ارتفعت عن عينى بتأثير الجمال وحده ، فبدأت باريس تحيا . قامت الأميرة النائمة وقد فك عنها عقال الساحر المشئوم . حركت ذراعيها البيضاوين أو نشرت شعرها الذهبى ، أشعة الشمس تتجاوب بين قباب الأنڤاليد والڤال دى جراس ، وأسهم السانت شابل ، وقبوات قوس نصر الكاروزل ، وإذا هى باريس تتلقى عشاقها وتشير إليهم . أنظرونى إلى غد إن كنتم تستطيعون معى صبرا ، وإلا فهاكم صفحات تاريخى صفحة صفحة تتلهون بها عن حاضرى ، وما غدى إلا صورة من أمسى .

سرتُ بعدذلك حاسر الرأس مكشوف الغطاء ، فعرفت أننى الواهم الخاطىء ، وأن باريس هى باريس ، لم تتحول عن مُثُلها العليا لحظة واحدة فى الفن والجمال والإنتاج الذهنى .

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح ، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر ، والمعامل ودور الحكم ، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والأدبية والفنية ، فإذا الشعوب لاتعيش بالخبز والزبد وحدها ، ولا تموت بالحديد والنار فحسب .

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقى الشعوب : هو فى فكر الفيلسوف ، ومعمل العالم ، وريشة المصور ، وقلم الكاتب والموسيقى .

وإذا كنت وجدت فى لوندرة شعباً فخوراً بانتصاره ، وفى باريس شعباً كسيراً بانكساره ، فقد عرفت فى الشعبين نفس المثل العليا التى عقدت لها الحضارة ألويتها منذ ازدهرت أثينا ، وحكمت روما ، ورسم ليوناردو ، وحفر ميكل أنجلو ، واحتج لوثر ، واحتكم ديكارت إلى العقل وحده .

وإذا كنت فى لوندرة وجدت النظام البرلمانى يسير سيره وئيداً واثقاً ، فقد عرفت فى باريس شعباً لما يهتد إلى ضالته فى استقرار سياسى أو هدوء اجتماعى أو طمأنينة اقتصادية . هنا أمة ناقهة تنتابها بعض بقايا الحمى ، قلقة لاتعرف اتجاها داخليًّا أو خارجيًّا . تتمخض عن دستور لاهو دستور الجمهورية الثالثة ، ولا هو دستور الثورة الجديدة . بين بين ، اضطرت إليه أحزاب ثلاثة كبرى لترضى أشتات نزعاتها جميعاً ، وتسىء إلى نزعاتها كافة .

عقد مؤتمر السلام بين جدران باريس فى جو خانق من تبادل اللوم ، وتناقر المناقير ، جبهة تناطح جبهة . وفرنسا بينهما كأنها بين شقى الرحى . شعب يناهض الحكومة ، وحكومة تراضى الشعب . . . على حساب الشعب . واليمين يرفع رأسه الدى دنسه التعاون مع النازى ، وينظر شزراً إلى اليسار طهرته المقاومة ، وعلمته المحن كيف يعرف أعداءه بين أصدقائه . والمقاوم الفرنسى الأول يحارب اليسار فلا يجد بظهره سنداً أقوى من طغمة التعاون والرجعية ، يسترون اليوم خلف اسمه الرنان ، بحجة الدفاع عن النظام والسلطان ، نفس الحجة فى مؤازرة أنصار الهدنة الشائنة والمريشال .

خضم من النشاط ، وأفق ممتد من الترقب . وحياة مادية صعبة ، ونشاط عقلى وفنى مزدهر . واستهتار بالقانون فى سبيل العيش ، وبالعيش فى سبيل المثل العليا . جسور تصلح ، وطرقات تنشأ ، وصناعات تنظم فى جو عاصف هائج ، تصوره أصدق تصوير صحافة صاخبة طويلة اللسان .

هذه هى فرنسا اليوم وأمس . . . وغدا . وبغير هذا لا تكون فرنسا . ومن يريد لفرنسا غير هذا فهو لا يعرف روح شعب حى بكل معنى الحياة . حياته فى خلافاته ، ومنازعاته ، وتقلباته . لا تتحد كلة إلا على مبدأ واحد لا شريك له : الفكر الحر .